محمد قرنه

صلاح وأضواء عن حياته وشعره

بقلم الدكتور / على الخطيب الشطورى
المدرس بقسم الأدب والنقد

(الشاعر الذى لا يعرف من شعره ، لا يستحق أن يعرف) هكذا قال الاستاذ العقاد وهو بصدد دراسة عن أحد الشعراء ، وقد ذكرت تلك المقولة وأنا أطوف في سراديب قصائد شاعرنا محمد محمد على قرنة • وهو ديوان من دواوين كثيرة لم يكتب لها الذيوع والانتشار ، لاسباب لا تخفى على كثير من باحثى الادب • والمهتمين بالحركة الادبية في صدر هذا القرن •

ولا يهمنا كثيرا أن نتعرض لهذه الاسباب ولكن عود الى مقولة الاستاذ العقاد نرى أن شعر الشاعر هو الذى يقدمه الى الناس جملة وتفصيلا ، فليس أفكار الشعر ولا فلسفته • ولا قاموسه الشعرى ولا حقيقة الشاعر من حيث كونه متقلدا لوظائف أدبية شتى ـ بقادرة أن تقدمه الى الناس بالقياس الى سمو تلك الافكار وخلود تلك المعانى حتى ليخيل للقارىء في أى زمن وفي أى بقعة أن يتجاوب مع تلك المعانى وهذه الافكار على تباعد الزمان والمكان حيث تستكنه الحياة ويحس بها مع أفكار الشاعر وخلجاته التى ينظمها شعرا •

ومن غير تعرض لقضية اللفظ والمعنى نرى أن الطبيعة ومافيها من سحر خالد قد أفاءت على عواطف شتى وعلى عيون وقلوب رأتها وانتفضت لسحر مغانيها فجادت بصيب كثير ونتاج غزير

من قرائح الشعراء المتقدة الثرة،ولكن ليس كل ناظم بشاعر كما قال الدكتور طه حسين فهناك من تجاوبت معه القلوب واهتزت لنظمه العواطف والاحاسيس لانها ارتبطت معه بذلك الرباط الوثيق الذى نعنى به الشعور ،الذى يكمن في كر النظم وقدرته على تأدية المعنى رغم تباعد الزمان والمكان بين الشاعر والقارىء ..

وقد كانت بمصر ظروف صعبة عسيرة في أوائل هذا القرن ، بدأتها السياسة من حيث كونها أصل لكل تغير ، وأساس في تشكيل حياة المجتمعات ، فقست الحياة بمصر في هذا الوقت لقسوة الساسة وعنف السياسة ، وقست معها ظروف الحياة المعاشة ، فأصبح الناس في شغل عن الفكر وبعد عن الكلمة حيث أصبح اللفظ الحر تمردا ، والفكر الحق مروقا،والتمسك بالفضيلة رجعية ، فاضطرب الفكر ، وتحير العقل ، وغابت الحقيقة،وعليه تقوقع الشعراء داخل ذواتهم ، يشتكون اليها ظلم الحياة في رمزية غامضة وأفكار موحية ومنهم من لم تسعه نفسه فانطلق الى الطبيعة يبثها نجواه وشكواه وشجونه ويجد في أفيائها المتسع لضيق نفسه القلقة ، وانضطراب فكره المتحير .

ومن هؤلاء الشعراء من كتب لهم الذيوع والشهرة،ومنهم من غمطه الزمان حقه لسبب أو لآخر فلم تر أعماله النور أو رأته في اعراض عن القراءة والثقافة الى شغل الحياة الشاغل .

ومن هؤلاء كان شاعرنا (محمد محمد على قرنه) حيث تواكبت عليه صروف الزمان ، وكر الحدثان ، وتنكرت له الايام حينا من عمره حيث سجن لفترة جزاء فكره الثورى الجرىء كشاب نابه متطلع الى بناء بلده في حقبة عصيبة ، فلجأ الى الرمز حينا والى الصراحة حينا آخر ، والى المنطق مرة والى الفلسفة مرات ، ولا غرو أن نراه يهدى ديوانه وباكورة نتاجه الشعرى الى (المهاتما

غاندى) الثائر الهندى وفيلســـوف عصره وزعيم زمانه والى الاستاذ العقاد صاحب القلم الجبار والفكر المستنير وهو يعد طالب في كلية دار العلوم (١) ٠

والديوان الذى بين أيدينا يحمل عنوانا يفضي الى مانحن فيه من حديث ، حيث أسماه الشاعر (في تيه الحياة) فهو يســـير بقارئه في دهاليزها ويسبر أغوارها ويخبر أسرارها ، ويغـــوص فيها رغم قسوة الامواج وهبوب الاعاصير ، غـــوص المكتشف لا غوص السابح ، فهو يعود لنا دائما بدرر المعانى ، وأصـــداف الرموز في نسق عذب وصوغ جميل ٠

* ولعل ما يجعلنا نطمئن الى شاعريته وصدق حسه هـــو تقديمه لديوانه بنفسه ، فليس أعرف من الشاعر بمقاصد افظه ومراد معناه حيث يقول الناس كثـــيرا ان المعنى يكمن في بطن الشاعر ، ولهذا نرى الشاعر يقول في لفظ موجز وحس صـــادق ولهجة ثائرة حسه وفكره وشعوره ونظمه ٠

فيقال : ان مهمة الشاعر (الشعور بالحياة) والاحساس بها على وجهها الصحيح وعملية الاحساس هذه ليست منزلة حينه يعطاها كل فرد ويصل اليها كل من أراد الوصول فلئن كان عـــلى الفيلسوف (فهم الحياة) وعلى الزعيم تسيير الحيـــاة فعلى الشاعر الاحساس بالحياة والتعبير عن هذا الشعور ، وعلى ذلك تكون مكانة الشاعر في الشعر فالشاعر المحدود الاحساس محدود المكانة والذى يرى الحياة من جانب واحد أدنى مرتبة من الذى يرى منها جانبين أو ثلاثة لان اتصال نفسه بالنفس المطلقـــة (الخالدة) أقل من اتصال هذه النفس بها وهو لذلك أقل شعورا بالحياة واحساسا بأسرارها) ٠

وهو ينعى على عصره احتفاله بشعر المتصـــنعين ، حيث

---

(١) كتب هذا الديوان في الثلاثينات من هذا القرن ٠

يعجب الناس بالالفاظ الطنانة العارية من المعنى الهادف، والفكرة المستنيرة فيقول عن هذا الشعر :

« ٠٠ ولقد ساعد العصر الحاضر على تنمية مثل هذا الشعر ٠٠ فلقد مضي جيل الدين الحى أسراره ومعابده ، ومضى الناقد الحماسة بفرسانها وما يتتبع ذلك من وقائع الحـــرب والحب ، ومضي جيل الزعامة الرشيدة بابتعاثها للقلوب واثارتها للارواح وأصبحنا في الجيل الذى يتحكم فيه الشعب ذو العـرش الترابى والاذن التى لا تفهم الا رنين المـادة ، فالحق عنده مادة تشترى لا عقيدة تفدى ، والحب عنده شهوة جسدية أو مقـــدمة للزواج لا عاطفة تطلب لذاتها ونزعة من نزعات تسامى الروح تبلغ مرتبة العبـــادة ٠سر٠ » ؟

* وهو يفسر عنوان ديوانه « في تيه الحياة » بأنه كان يرى أن الحياة تيه واسع متشعب المسالك متشابها يسير فيه الناس عارفين أو جاهلين ما بين غاضب وراض ومتمرد وقانع ، وباك وفرح ، ومتفائل ومتشائم ، وكلهم يتقـــاتلون في ذلك التيـــه ويتنازعون وتشتعل بينهم المعركة الابدية الخالدة وكل منهم يدق عنق أخيه طمعا في نيل سراب يبرق لهم ماؤه في صحراء الحيـــاة الجافة ، وكلهم يموتون على قيد شبر منه مدفوعين عنه محرومين والدهر يدفعهم في سبيله ساخرا بالمنهزم والمنصر على السـواء لولا رياء يحجب سخره عن الناس ٠٠ فالحياة تيه واسع تلمع فيه الاوهام وتقود بها خطانا في سبيل غايتها التى لن تعمـــل لها وسرابها الاكبر : سراب الكمال ٠٠ ؟

على هذه الروح يفسر الشاعر كل ما في الحيـــاة من مظاهر ويمزج كل ذلك بعاطفته الثائرة وخياله المتمرد الذى ينطلق الى ما وراء الغاية حيث يستكنه الحياة ويحس بها على نحـــو يراه صحيحا ٠

ويختتم الشاعر مقدمته برأيه في الحب والسبيل اليه فيقول : « وليس الحب جسدا يتزيى بغير زيه ، ولا مادة تزخرف بزخارف الروح ، بل هو نفوس تتلاءم وقلوب تتآلف ومنشعب من منشعبات الحب الكبير الذى عرفه الناس من قديم فرمزوا له في العصور الهمجية بملك ، وفي الوثنية بصنم ، وفي الدينية بدين ، وفي العصور الحاضرة بوطن ، وما الحب الضيق الا منشعبا من الحب الكبير ٠٠ ويذيل ذلك بأنه كتب شعره هذا في شطورة (١) في العاشر من سبتمبر سنة ست وثلاثين وتسعمائة وألف ٠

* ويقع ديوان الشاعر قرنة في ست وتسعين صفحة صغيرة المساحة ٠

* ويحتوى على واحد وستين قصيدة تختلف فكرا ومعنى ، كما تختلف نفسا وطولا ، ولعل أكبرها على الاطلاق قصيدة « في تيه الحياة » تلك التى جعلها الشاعر في قصائد ثلاثة تحمل نفس العنوان وتنبث في ثنايا الديوان ٠

والمتأمل لحس الشاعر ٠٠ يرى أنه يجنح دائما الى فلسفة الحياة وتفسير ظواهرها ومحاولة ادراك كنهها في صورة فلسفية ، ويظهر ذلك من خلال عناوين قصائده التى تضرب في مجاهل المنطق ، وتوغل في سراديب المجهول فمن عناوينه « شوق الى مجهول » ، و « لا روح ولا جسم » ، « محراب الاثم » ، « الوهم » ، « نظرة للكون » ، « ما فوق الحياة » ، « الخالد » ، « الجسم الروحى » وهكذا ؟

---

(١) قرية الشاعر وهى من أعمال مركز طهطا محافظة سوهاج

* وفي قصيدته « في تيه الحياة » (١) يحاول الشاعر رسم صورة لقلقه في مجتمعه الذى مل الثواء فيه ، وأصبحت حياته به رتيبة جامدة ، وصار يسير فيها كما يسير بتيه الموت صرعاه كما يقـــول :

مل الفؤاد بهذى الارض مثـــواه
اذ لا فؤاد بهذا الخلق يرعاه
ومل عيشا رتيبا كالفناء غدا
لا شيء فيـــه يرجيه ويخشاه
وقد كان فيه لبانـــات تؤرقه
ذوت فما ثم الا الفقر يغشاه
قد كان دنيا من الآمال يعمـــرها
فصار كالقبـــر والآمال موتاه
وصـــار في تيه دنياه ومهمهها
كما يسير بتيه الموت صرعاه

* ولعل بحث الشاعر عن المجهول واضطراب نفسه القلقـة المتحيرة ، ومحاولته استكناه سر الحياة يرجع الى بحثه عن محبوبة تألفه وتحتويه حبا وحنانا وكيف السبيل الى ذلك في وقت يرى فيه الزيف والملق والتصنع والبهرج الكاذب ، وكيف والسبيل الى ذلك في ضيق الحياة وفقرها ، ويأخذ في مناجاة الكواكب والنجوم عله يجد من بينها حبه وقمره وسلواه فيقول :

يا أيها الكواكب المنشـود مقدمه
أضي لى القلب ان الليل يغشـاه
حباك ربك نورا تستضيء به
أضيء فؤادى بما أعطاكه الله

---

(١) أنظـر مخطـــوطة ديوان الشاعر - بخط يده بمكتب الشاعر بالقاهرة - المنيل .

يا أيها الحب هلْ نور يكشف لى
ما يذخر الكون من أطيـاب نعماه
ما زلت أطلب بدرا منك مطلعـه
حتى كبرت ولم أشهد محياه
ما زلت أطلب نورا أستضيء به
فشاخ قلبى ولم أنعم بمرآه
من لى بكأسك ترويني وتبعث لى
قلبا بأضـــلعه كنا دفنـــاه
كأنما صدره الملقى به قفض
فأحطمه ان اسار القيد أضناه
هو الحيـــاة فنحن الآن في زمن
كأننا في فيافي الموت نحيـــاه
هو الحياة فمن لى أن أعيش به
حى الخـــوالج مغمورا برياه
قد ذاقه ملأ من قبل قد سـعدوا
وشاهدوا من ضياء الحب أسناه
حسب الذى سئم الدنيا بأجمعها
علا الكمال بهدى الحب يرقاه

* وتزيد حدة اضطرابه وتخبطه ويسأل : هلْ من قبس يمكن أنْ يرشده الله به في بحار الحياة ومجاهلها ويستطيع به أن يفسر الاقدار وغاياتها ويرجع في النهاية من تساؤلاته موقنا أن جمـال الحاة وسحرها في غموضها فلو أدرك الناس سرها لمـا كانت لهـا قيمة تذكر ٠

ويروح يسألْ عن ليلاه ومستقرها بعدما تاه وأضناه الشوق لمرآها في زحمة الحياة التى طغى فيها الخـــداع والزيف والملق ، فيقـــول :

تناقضت هذه الدنيا فهل قبس
من عالم الفكر يهدينا به الله
ان سرت في بحرها أبدى مجاهله
يصدنى منه أمواج وأمواه
أكلما قد عرفنا منه خافية
اذا بنا قد نسينا ما عرفناه ؟
أكلما قد وصلنا غاية خفيت
اذا بنا قد نسينا ما وصلناه ؟
ما أول العيش في الدنيا ومنشئها
ما آخر العيش فيالدنيا ومنحاه ؟
وما الحياة أأعمال نجاهدها
أم أنها حلم نشتاق رؤياه
وهل تصرفها الاقدار لاهية
لمقصد لست أدرى أين عقباه
حقائق لم يخط علما بمنشئها
ومقصد لم نحط فهما بمرساة
فلا تقولوا لشيء في مجاهلها
انا عرفناه أو انا جهلناه
هذا هو الكون نهر واه ونجهله
وان أحسن ما في الكون أخفاه
فلو عرفنا لباب الكون أجمعه
زال الجلال الذى قد كان يغشاه
وان نظرنا بعين العقل زايلنا
ذاك الخفاء الذى كنا عشقناه

ثم يردف بعد حين فيقول :

ليلاى أى بلاد الله موطنهـا ؟
ففيهـا تائه التفـكير مضـــناه
ان ابتساما على الافواه يخدعنى
أين ابتســام على الافواه أهواه
انـى لابحث عن ليلى لتشرق لى
فجرا على القلب يهـديه ويرعاه

وينهى رحلته في تيه الحياة سائلا التيه أين المقصد وما هو السر ؟ وكيف السبيل الى الحقيقة الازليـــة تلك التى ما تزال ساطعة الضوء تغرى فراشاتها وتجذبهن اليها ويحترقن فيهـــا خدلات ملتذات .. يقول :

يا تيــه أين مراميـنا ومقصــدنا
ضل الفؤاد فهل تدرى بمرماه
أنرشد الناس في الدنيا لغايتهم
وما اهتدى قلبنـــا الظامى لمرماه
هذا ضياء بليل التيه أنشده
وذاك رى بقفر التيه أهــواه
هـــذا جمال يراه ربه قبســـا
لكل من ضـــــل في آفاق دنيـــاه
يا ربما عل من أحزانه نهـلا
وربما هده ما كان أحيـــــاه
لكنه بعـــذاب الحب مبتهج
ان كان أسعده أو كان أشـقاه
فيا فؤاد الى الفجر الذى بزغت
أنواره فهو ما كنـــا رجـــوناه
وان أبادك هذا الفجـــر من وهج
فاننا ان عشـــقناه فديـنـــاه

انا اذا ما وصلنا الشمس فاحترقت
أرواحنا فهو ماكنا نشـــدناه
للذعة النـــار آلام يلذ بهـــا
من لم تمتعه بالافراح دنيـاه

وفي قصيدة (خواط على النيل) يحاول الشاعر أن يدفن قلقه بين أمواج النيل ، ويحاول أيضا أن يستوقفه ليسأله عن أحـوال تلك الدهور التى انقضت فهو لحياة صنو وصديق ، ومن مثله عرك الحياة وعاش حوادثها منذ أقدم ما توصل اليه الانسان من تاريخ ؟ ولعل تلك التساؤلات كانت سمة غالبة في شـــعراء تلك الحقبة حيث كانوا ـ كما أسلفنا القول ـ يبثـــون أفـــكارهم وتساؤلاتهم مفاتن الطبيعة الخالدة من صحراء وطلول أو أنهار ومغان ولهذا كان وصفهم يجيء ملتبسا بأحاسيسهم ومشاعرهم التى غالبا ما تكون مشحونة بدفقة كبيرة من المعانى الثرية .

يقـول الشـاعر :

البدر يسبح في الضـــياء كأنه
روح يحجبها الضـــياء فتحجب
والنخلُ يسبح في الضـــياء كأنه
ظـل يكاد على التـأملَ يذهب
والسحب تسبح في الضياء كأنها
زبد عـــلى لج السنا يتقلب
والكون نام فلست تلمح فوقه
الا الامانى والرؤى تتـــوثب
لا ركز(١)فيه ولا صدى فكأنه
قـدسي عـلى أسراره متحجب

---

(١) الركز : الصوت الخفى .

ظلت يبوح بها الضياء فتبتدى
حيرى ويحجبها الخفاء فتغـــرب
والنيـــلُ يهزج بالغناء كأنه
شيخ يلوح له الشباب فيطـــرب
خطت الحيـــاة بجانبيه طفلة
تلهو عـــلى تلك الرمالِ وتلعب
ورأى الدهور وما يصوغ قضاؤها
يعلو الضعيف بها ويهوى الاغلب
ورأى الحياة وبؤسها ونعيمهـا
فكأنما هى مسرح بلْ ملعب
فعلى محيـــاه ابتسامة خالد
غاف فلا هو ضـــاحك أو غضب
وسكونَ جبار أطاف به الكرى
يشدو ويبسم وهو شـيخ أشيب

* * *

همست له نفسي هنالك همســـة
فصغى اليها موجه المتـــوثب
أعرفت كلَّ السر أم لم تدر ما
تخفى الحياة وما يكن الغيهب ؟
أعلمت ما أصلَ الحياة ونبعها
أعلمت أين مرامها والمطلب ؟
قدس كقدسك لم يمطه باحث
فان ولم ينفذ اليـــه منقب .
قد كنتما طفلين والدنيا لقى
في كفـــة الموت القوية تلعب
ولانتما في الـكون مسرى قوة
خفيت منابعها وبان المسرب

ولأنت باق كالحيـــاة مخـــلد
ولأنت مثـل قشـــورها متقلب
في كلّ خطرة موجة من بحرها
أمم تقوم بها وأخرى تغـــرب
ولأنت وحـــدك عالم متأصـــل
متجمع في لبهـــا متشـــعب
كالدوحة الكبرى تريك فروعها
جذرا الى لب العوالم تضرب
وشـــهدت أديانا تمر وعالمـــا
يهفو لها وحقـائقـــا تتحجب
تتقلب الاديان نســـكا زائفـا
لكنهـــا في اللب لا تتقـــلب
وعرفت من هذى الحياة مسيرها
مما يجيش بها وما يتسرب
فارو الحديث وهات لى أسرارها
فلأنت أولى من يقولّ ويخطب

ويحاول الشاعر أن يستنطق النيل ليخبره عن الالى عرفوا السر الاعظم للحياة ، وهو الخالق المدبر وآمنوا به حينا وكفـروا أحيانا وعبدوه مرة رهبة من ناره وأخرى رغبة في جنانه وحورها، ولكنه يرى أن نفسه قد عبدت الله حبا فيه لا رهبة ولا رغبة حيث أضاء نوره جوانب نفسه بعدما رأى من قدرته واعجازه في تشكيل خلقه • يقول مناجيا النيل :

أين الألى هتفوا اليك وهللوا
وتقدموا بالغانيـــــات وقربوا
من كل مشرقة ألسنا قدسـية
في ذلك الموج المقدس تغـرب

خطرت اليك وكل قلب خاشع
وثوت لديك وكل عين تسكب
قالوا لقد ظلموا فقد كذبتم
ما الدين الا منسك وتقرب
ما الدين الا حيث كبر مؤمن
لله لا يرجو ولا يتهيب
ولا يرهب النيران في أهوالها
أو يرغب الجنات اذ تتطيب
عرف الاله بروحه وشعوره
وعليه من ستر القداسة غيهب
قد ضل هذا الناس حتى خلتهم
عبدوا الههم لكى يتكسبوا
فتنوا بلذات الجنان وحورها
وتخوفوا النيران اذ تتلهب
لو لم يكن نار لديه وجنة
كفروا بآلاء الاله وكذبوا
ما الدين الا أن تحس بروحه
في كل أشكال الحياة تسرب
وترى ضياء الله في حيث أمحت
سدف الظلام وحيث ضاء الكوكب
فوق الزهور تناسقت ألوانها
وعلى البروق ضياؤها يتوثب
وعلى لهيب النار يسمو في الدجى
فيزول منه وقد أهل الغيهب
وعلى الحياة جليلها ودقيقها
روح تكاد تراه اذ يتسرب

هذا هو الدين القويم وغـيره
خدع بأوهام الضـــلالة تحجب
ان الحيـــاة لقـــوة عـــلوية
الله منبعها ونحن المســـرب

وفي قصيدته « ليلة قمراء » يؤكد الشاعر شـــاعريته حين تنساب نفسه بين سكون الكون ويرى الاشياء تحادثه دونما كلام، وهى ـ كما قلنا ـ من خصائص شعراء تلك الحقبة . فالشاعر مهتم بالوصول الى الجمال المطلق والجلال المطلق والذى يتجلى في قدسية الله وابداعه في مخلوقاته التى دلت عليه ، في تفردها في الخلق والابداع ، يقول واصفا ليلته :

ثمل الـكون من رحيـق النـور
وانتشي من عبير تلك الزهور
وسـدته الحياة بردا من الضوء فأغفى في برده المنشور
وسـرت نغمـة النسـيم كحلم
قد سرى بين جانحات الصدور

والغدير المنساب بين الروابى الخضر يشدو لها بلحن الحزير
ذاب فيه الضياء فانساب في تلك الروابى كموجة من نور
سكن الكون غير همهمة النيـل والا أصداء تلك الطيور
خطرت كالخيال يخطر في الوهمة أو الذكريات بين الصدور
والضياء الرفراف يكسو ربا الوادى ببرد مموه منشور
يغمر النيل في أرائكه الخضر ويهدى خطاه بين المسير
بعث الحب في الوجـــود وأذكى
نزعات الحنين بين الصـــــدور
أو طيور تعلو على لجة النـــور الى عالم الفضاء المنير
ونفوس تسمو بأجنحة الاحـــلام ظمأى لعالم مسحور
ها هنا ألمح الحيـــاة جـــمالا
قـــدسي الابـــداع والتصدير

وأراها روحا تغلغلُ في الكون وتبدو ما بين تلك الستور
وأراها جسما يشف عن الروح ويغرى بحسنها المستور
ها هنا أمزج الحيـــاة بنفسي
وأروى من الجمـــالُ شعورى

والناظر في ديوان الشاعر يراه عنيدا لا يقتنع باليسير السهل ولا ينخدع بظواهر الاشياء بل يسبر غورها ويطلب لبها ، وها هو في قصيدته (ما فوق الحياة) يحاول التطلع الى ما وراء الحيـاة أو ما فوقها يرد الوصول الى الخلد حيث ذاقته نفسه قبل أن يأتى أوانه ، متساميا عن لذات الحياة وأوضارها .

يقـــــول :

تعللت من كأس الحياة وخمرها
فما رويت نفسي ولا طاب مشربى
وأعـرض عن كأن الفناء مريرة
فما العيش من همى ولا الموت مأربى
ولكن ما فوق الحيـاة وان نأى
مرامى وما فـــوق الدنا متطلبى
أريد قيود المجد والحب حـــــرة
وأحقر قيدا من طعـــام ومشرب
فلا تعذلونا أن نعـــــذب روحنا
فأعذب عيشي عيشـــة المتعذب
اذا كانت النعماء في العيش صاغرا
فلا كانت النعماء في العيش مأربى

وللحـــديث بقيـــة
د٠ على الخطيب الشطورى
مدرس بقسم الادب والنقد